شعر النقد الإجتماعي في العصر المملوكي

الباحثة. بريناز ميرزا محمد نام الباحث. علي باقري

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة طهران/ إيران

Poetry of Social Criticism in the Memlooki Era

Researcher. Berinaz Merza Mohammad Nam

Researcher. Ali Baqiri

Department of Arabic / Tehran University / Iran

lateracher@gmail.com

Abstract

The relationship between literature and society is deep so it is noticeable that poets of different eras are influenced by their environment negatively and positively ib various ratios. In the Memlooki era, poets derived their poetic images from their real society in addition to their critical and sarcastic spirits.

Key words: literature, society, social criticism, Memlooki era.

الملخص

إنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة ولهذا نرى أنّ الشعراء في كلّ عصر من العصور يتأثرون بالبيئة التي يعيشون فيها سلبا وإيجابا ويكون مقدار ذلک التأثر مختلفا ما بين شاعر وآخر. ارتبط الشعر في العصر المملوكي بالمجتمع ارتباطا قويا، حيث كان الشعراء يستمدون الكثير من صورهم الشعرية من واقع مجتمعهم ومن مجريات أحداثه، مضيفين إليه الكثير من روحهم النقدية والهجائية و لا عجب فالشّاعر مرآة عصره.

درس الباحث في هذا البحث محاور النقد الإجتماعي الثلاثة عند شعراء العصر المملوكي وهي: النقد الذاتي، فقد نقد الشعراء أنفسهم وأسرهم وأزواجهم. والنقد السياسي إذ نقد الشعراء الملوک وأصحاب الشرطة، والموظفين. والنقد الديني، حيث نقد الشعراء بعض القضاة والفقهاء، والمتصوفة و أهل الذمة وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي. خلص إلى أنّ شعر النقد الإجتماعي عند شعراء العصر المملوكي كان سجلاً تاريخياً لحياة المجتمع الإسلامي في عصرهم وسلاح كثير منهم في مقاومة الظلم والجور، لذلک فإنّه يعدّ مظهراً من مظاهر المقاومة الشعبية والتمرد على الظلم.

الكلمات المفتاحية: الأدب، المجتمع، النقد الإجتماعي، العصر المملوكي.

المقدمة:

إن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة ولايتولد فن عموماً ولا أدب خصوصاً إلا في الجماعة. و لا يُنكر أنّ لكلّ شاعر طابعاً خاصاً يميز شعره عن سواه وأنّ لشخصية الأديب وحياته النفسية دوراً بارزاً في مواقفه الأدبية. لكن الأدباء والفنانين هم أبناء بيئتهم منها ينهلون ويتناولون ويغرفون وفيها يشع انتاجهم ويتدفق إبداعهم وإليها يلتفتون فلا أدب ولا فن إلا في الجماعة ومن أجل الجماعة ولا يمكن الغوص في أعماق الأدب إلا داخل الإطار الإجتماعي الذي منه ينطلق الأدب وإليه يلتفت.

يتأثر الشاعر بالبيئة التي يعيش فيها؛ سلباً وإيجاباً ويكون مقدار ذلک التأثر مختلفاً ما بين شاعر وآخر، ومن يطّلع على سيرة عدد من شعراء العربية القدامى، والمحدثين على حدّ سواء يجد أنّ كثيرين منم اهتمّوا بقضايا مجتمعاتهم وتنبّهوا إلى المسؤولية التي يتحمّلونها في معالجة تلک القضايا، وفق رؤية واضحة بحيث يؤثر في مجتمعه ويعمل على إصلاحه. وهذا يؤكد أنّ علاقة التأثر والتأثير متبادلة بين الشاعر ومجتمعه، فالشاعر « بمجرد أن يمسک القلم يفكّر فيمن سيقرؤونه، ويحاول دائماً أن يتطابق معهم ويعي مجتمعهم وعياً كاملاً، بكل قضاياه، وأحداثه، ومشاكله، لسبب بسيط هو أنّه إجتماعي بطبعه.» (ضيف، بلا تاريخ: ١٩١)

وقد عالج عدد من الشعراء الجاهليين قضايا مجتمعهم وكانوا لسان حال قومهم في كشف المحاسن والعيوب، فيما انحسرت المعالجات في العصور اللاحقة وتحوّل الشعر إلى وسيلة تكسب، أو تنازع حزبي، أو شعوبي، لكن من يطالع شعر شعراء العصر المملوكي يجد فيه قدراً « لابأس به من الوعى السياسي، والأخلاقي، والإجتماعي،تمثل بمواقف عدد كبير من الشعراء والكتّاب تحسسوا مواضع الخلل في مجتمعهم، فرصدوها وتصدّوا لها، كلٌ من زاويته ودرجة إحساسه بالمسئولية.» (الأيوبي، ١٤١٥: ٢٣٨)

« توقف الشعراء في العصر المملوكي أمام الظواهر الإجتماعية والسياسة. فعرضوا لمعالمها السلبية والإيجابية. فعابوا الأولى وامتدحوا الثانية. بعضهم اكتفى بتصوير المعالم وإبداء الأسف، وبعضهم الآخر رفع الصوت واحتجّ، نقم وذمّ وسخر ونقد نقداً لاذعاً... وقسم آخر عرض لنوازع نفسه ومارس النقد الذاتي وهكذا تنوعت المواقف والمواضيع. فكان لنا شعرٌ كثير في النقد الإجتماعي و السياسي، إن لم يؤد إلى تقويم الإعوجاج وتصويب المسار العام فقد نكأ الجراح و أثار المشاعر وأيقظ طاقات الوعي وسجّل نقاط اعتراض وبرّأ العصر من وصمة الصمت والتجاهل أو التعامي كما يحلو لبعضهم نعته وتقويمه.» (المصدر نفسه، ٢٤٠)

قبل البدء بالدراسة، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ النقد الإجتماعي يختلف عن الهجاء في قضايا ويتشابه معه في أخرى ومن الصعب الفصل بينهما فصلاً قاطعاً جازماً، حتّى اختلف الدارسون المحدثون في تحديد علاقتهما بعضهما ببعض، فبكري شيخ أمين رأى أنّ الشعراء في العصر المملوكي لم يقولوا في مظالم مجتمعهم بل قالوا في هجاء زوجاتهم وغلمانهم وغيرها، مما اسماه تفاهات. (أمين، ١٣٩٩: ١٤٤)

بينما قال في موضع آخر قال: « لقد تحدّث شعراء هذه العصور عن المفاسد الإجتماعية والأخلاقية والسياسية، وشكوا من الخداع والتّضليل والتّدجيل وارتفاع الأسعار... بأسلوب فيه كثير من التقية وشيء من السخرية المبطنة والمرارة والألم الواضحين.» (المصدر نفسه، ١٤٦-١٤٧)

وذلک يدلّ على أنّه لم يميز بين الهجاء، والنقد الإجتماعي. كما عدّ محمد كامل الفقي ردّ البوصيري على النصارى واليهود في ادعاءاتهم ونقاشه لهم وإقامة الحجّة عليهم نوعاً من الهجاء. (الفقى، ١٩٧٦: ١٣٦-١٣٧) وأما محمد زغلول سلام فرأى أن الهجاء اتّخذ في العصر المملوكي وسيلة للنقد الإجتماعي. (سلام، بلا تاريخ: ٣٨/٣) ومحمد نوري الهيب تحدّث عن النقد الإجتماعي وعرّفه فقال: « إنّه نوعٌ إيجابي من الهجاء، تجاوز حدود الفردية الضيّقة ليتناول ما يراه مثالب ذات آثار سلبية على المجتمع سواء أكانت صادرة عن الفرد، أم عن المجتمع ويسلّط عليها أضواء النقد والتجريح، رافعاً بذلک صوته، لعله يجد أذنا صاغياً تستجيب. وإذا لم يجد فحسبه أنه قال كلمة الحق وألقى من فوق كاهلة تبعة السكوت عنها، وعبّر عمّا في نفسه من ألم وغضب، ووجد بعد ذلک بعض الراحة ممّا يعانيه. (الهيب، ١٤٠٦: ١٦٤-١٦٥) و رأى خالد يوسف أن النقد والسخرية والإعتراض سواء أكان موضوع العاطفة الفرد أم الجماعة هو جزء من الهجاء. (يوسف، ٢٠٠٣: ٤٧٢) و رأى أحمد بدوي في الهجاء نظرات نقدية لبعض أحوال المجتمع، تناولها بعض شعراء عصر الحروب الصليبية في لهجة ساخرة.» (بدوى، ١٩٧٩: ٨١) وقال: « وهكذا نجد في هذا الهجاء نقدات وانعكاسات لما كان في المجتمع من قوانين و عادات وتقاليد.» (المصدر نفسه، ٨٣) ثم علّق على هذا النقد فعدّه خير ألوان الهجاء، « وخير ألوان الهجاء في ذلک العصر ما كان على سبيل التّهكم والسخرية.» (المصدر نفسه) على أنّني أرى أن النقد الإجتماعي يمتاز عن الهجاء بأنه يهدف إلى الإصلاح، ورفع الظلم، ووأد العادات والسلوكات السيئة في المجتمعات، وهو قد يلامس الهجاء لكنه لايبلغ مبلغه من الشّتم والسّب والحطّ من المكانة. وهدف ملامسته بعض معاني الهجاء هو أيضا تحقيق ما سبق و الحثّ عليه. وقد اعتمد الباحث في دراسته شعر النقد الإجتماعي في العصر المملوكي المنهج الوصفي التحليلي وتستهدف هذه المقالة الإجابة على الأسئلة التالية:

١. ما أهمّ الأسباب التي دفعت الشعراء في العصر المملوكي إلى شعر النقد الإجتماعي؟
٢. ما هي الموضوعات التي تطرّق إليها الشعراء في النقد الإجتماعي في هذا العصر؟
٣. مَن هم الشعراء الذين اهتمّوا بشعر النقد الإجتماعي في هذا العصر؟

دراسة الموضوع:

المجتمع المملوكي كان يعجّ بالتناقضات الإجتماعية والسياسية. فاتّسم بالاضطراب وعدم الاستقرار. وذلك جراء صراع المماليک فيما بينهم على السلطة والصراع الخارجي مع الفرنجة والمغول. وهذا كان يؤدي إلى فرض مزيد من الضرائب على عامة الناس وانتشار الفساد، وسوء الأخلاق وبعض الرذائل بين الناس من مثل: الرشوة، والسرقة، والخيانة، والاعتداء على حقوق الآخرين، وغيرها. وقد عاش الشعراء في هذا المجتمع، فلم يقبل بعضهم أن يكونوا مثل العوام، بل رفعوا صوتهم محتجّين، أو منكرين، أو ساخرين، وهازئين أو محرّضين هؤلاء السلاطين، أو الأمراء على معاقبة المفسدين وإصلاح الأوضاع. الأسباب التي دفعت الشعراء إلى شعر النقد الإجتماعي كثيرة، ومنها ما هو الأهم وهو المدفوع من البيئة الإجتماعية والسياسية ومنها ما كان لأغراض دينية عقائدية. كان شعر النقد الإجتماعي سلاح كثير من الشعراء في مقاومة الظلم والجور، لذلک فإنه يعدّ مظهراً من المقاومة الشعبية والتّمرد على الظلم. اتّخذ الشّعراء شعر النقد الإجتماعي وسيلةً من وسائل الشكاية ومظهراً من مظاهرها، حيث كانوا من خلاله يصوّرون فقرهم وضيّق حالهم وجعلوا من خلالها يلفتون الأنظار إلى حالهم وأوضاعهم الإجتماعية والمادية.و قد جاء سعر النقد الإجتماعى فى العصر المملوكى موزعاً على المظاهر الآتية:

١- النقد الذاتي:

في هذا النوع من النقد ينقد الشاعر نفسه، أسرته، زوجته.... من كبار شعراء العصر المملوكي الذين شرّفوا عصرهم بهم و أعلوا كلمة الحقّ فيه، الإمام شرف الدين البوصيري. نشأ البوصيري في أسرة فقيرة و سعى إلى مساعدة أسرته وهو صغير السن، فعمل فى كتابة الألواح التي توضع شواهد على القبور، ثم اتصل ببعض الأمراء والوزراء، وأهل الحكم في مصر فمدحهم ونال عطاياهم. ويبدو أنّ أحدهم عرض عليه أن يتولّى وظيفة المحتسب بالقاهرة والتي كان يمكن أن تدرّ عليه اموالاً كثيرةً و أن ترفعه إلى فئة إجتماعية راقية لكنه رفض تولي هذه الوظيفة المهمة فقال من قصيدة طويلة: (البوصيري، ١٣٩٣: ٩٩)

لَاتَظلِمُونِي وَتظلمُوا الحِسبَهْ فَلَيسَ بَينِي وبينهَا نِسبَهْ

غَيرِي فِي البَيعِ وَالشِّرا دَرِبٌ وَلَيسَ فِي الحَالَتينِ لِي دُربَهْ

فهو لايريد هذه الوظيفة لأنه لايصلح لها، وهي لاتصلح له. لكنه حرّص على المحافظة على مهنته التي يُتقنها وهي الكتابة، والحساب والشعر، فقال: (المصدر نفسه، ١٠١)

إِنِّي امرؤٌ حِرفتِي الحسابُ فلا يَدخُلُ رَيبٌ عَلَيَّ فِي حِسَبَهْ

فَلَاتُرَدُّ الكتَّابُ جائزةً علَى حسابٍ مِنِّي وَلَاشَطبَهْ

يَشرَقُ مِنِّي بِرِيقِه رَجُلٌ يَشرَبُ مالُ العُمّالِ فِي شَربَهْ

وَالشِّعرُ ميزانُه أُقَوِّمُهُ وَلَيسَ تَنقَامُ مِنهُ لِي حَدَبَهْ

فَإِنَّنِي لاأرى المديحَ بِه للمالِ بَل للوِدادِ وَالصُّحبَهْ

وَالشِّعرُ عِندِي أَخُو العَدَالَةِ لا أَحسِبُ أَقوالَهُ وَلاكَسَبَهْ

يبدو أن سبب رفضه هذه الوظيفة المهمة كان عدم حبّه لهذه المهنة التي صوّر فيها ما يقوم به المحتسب من دعمال لايرغبها، فضلاً عن كونها أعمالاً مرهفة. كما أنه تجنّب بهذا الرفض شرورَ من كان ينافسه على الوظيفة وهو الفخر الغيشي (المصدر نفسه، ١١-١٢)

يرى زين العابدين ابن الوردي أنّ التكسب بالشعر عمل غير مقبول لأن التكسّب بالشعر يجعل المتكسّب عبداً و يحطّ من قدره وقدر أشعاره. ويبدو أنّ ابن الوردى كان قد عرض عليه منصب القضاء، فرفضه، فتعجّب الناس من رفضه. فبيّن لهم أن العلم أعلى رتبةً من القضاء و إنّه يعفّ عن هذا المنصب لتبعاته المهينة الأليمة. يقول: (ابن الوردي، ١٤٠٧: ٢٩٧ و انظر، ٣٧، ٣١٤، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٩٤، ٣٩٥)

تَعَجَّبَ قومٌ كيف أَترُكُ مَنصَبي وأَرفَضُه عمداً وما أنا مُضطَرُّ

وَقالوا: مَن حَلَّ في رُتبةِ القَضا وفارقَها حَتّى يواريه الثَّرى

وَأنتَ خبيرٌ بِالقَضاءِ وَعُسرِهِ إلّا فَلَعَلَّ العُثرَ يَتبَعُهُ اليُسر

طِباعُ عفيفٍ لايرى حُبَّ منصبٍ وَلكنَّ تَشَفّى حاسديه به مُرَّ

قَنِعتُ فَخِلتُ النَّجمَ دُونيَ رتبةً وهيهاتَ خوف الفقرِ عند الغنى فَقرُ

إنّ رفض هؤلاء العلماء وغيرهم منصب القضاء مرده خشيتهم تبعاته، كأن تفرض عليهم الأحكام، أو أن يزيغوا عن الحق ولعل شرط بعضهم ألا يأخذ أجرا على منصب القضاء كان سببه ذلك كي لاتكون رقابهم مرهونة بهذا الأجر والراتب عند سلاطين المماليك.

تنوّعت شكاوى الشعراء فى العصر المملوكي بين توجّع وتذمّر ونفور (الأيوبي، ١٤١٥: ٣٠٧) ولعل أول ما يلاحظ عندهم هو الشكوى الدائمة من جور الزمان، ومن سوء الحظ، حيث حكم عليهم بالفقر والغارة والفاقة. (محمد، ١٩٩٣: ٢٢٤) فمنهم من رزخ تحت إثقال الفقر والعوز، وضاقت به الدّنيا. انطلاقاً من حجرته الضيقة وثيابه الرثّة، وطعامه النادر مما جعله عنوان زمانه في عسر الحال وشدة الهزل وتقلّب الأيام. (الأيوبي، ١٤١٥: ٣٠٧)

ولعلّ من أوّل الشعراء الذين تجدر الإشارة إليهم، أباالحسن الجزّار الذي بالغ في وصف فقره وشكوى حاله و فاقته، حتّى انقلب عنده الأمير إلى سخرية ومن ذلك صوّره الطريفة المضحكة التي قالها في وصف داره الخربة حيث قال: (الحموي، بلا تاريخ: ٢٥١)

وَدارٍ خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السّابعهْ

طريقٌ مِنَ الطُّرُقِ مسلوكةٌ محجتُّها للورى شاسِعَهْ

فلا فَرقَ ما بين أَنّي أكونُ بها أو أكونُ على القارِعَهْ

تُساوِرُها هفواتُ النَّسِيمِ فتُصغِي بلا أُذُنٍ سامِعَهْ

وأخشَـــــى بهـــــا أن أُقـــــيمَ الصَّـــــلاةَ فَتَســـــــجُدُ حِيطانُهـــــــا الرَّاكِعَـــــــهْ

إذا مـــــــا قَـــــــرَأتُ إذا زُلزِلَـــــــت خَشـــــيتُ بِـــــأن تقـــــرأَ الوَاقِعَـــــهْ

في البيت الأول يجعل الشاعر داره الخربة لا على الأرض وإنما في قاعها، في سابع الأرض ويجعلها في البيت الثاني محجّة للناس الأمر الذي يجعلها بمثابة القارعة كما يقول في البيت الثالث. حتى أنّه لشدّة خرابها يخشى الإقامة الصلاة فيها فتسجد حيطانها الراكعة، ويخاف من قراءة سورة «الزلزلة» فيها خشية قرائتها «الواقعة».

والبوصيري على الرغم من أنّه كان يعمل في وظائف عدة إلّا أنّ وضعه الإقتصادي لم يتحسّن وبخاصةً أنّه كان كثير الأولاد. وقد صوّر فقره بصورة فكاهية ظريفة، فاستغاث بعدد من الأمراء والوزراء الذين مدحهم، لعلهم يستطيعون مساعدته فى التّغلب على قسوةالحياة، وسدّ احتياجات عياله المالية، قال في قصيدة مدح بها علي بن الصاحبي: (البوصيري، ١٣٩٣: ١٣٣)

ايُّهـــــا الصَّـــــاحبُ المُؤَمِّـــــلُ أدعـــــو كَ دُعـــــــاءَ اســـــــتغاثةٍ واســـــــتجارهْ

أَثْقَلَـــتْ ظَهـــري العيـــالُ وَقـــد كنـــــ ـــــتُ زمانـــــاً بهـــــم خفيـــــفَ الكـــــارهْ

ولـــــو أنّـــــي وَحـــــدي لكنـــــتُ مريـــــداً فـــــي ربـــــاطٍ أو عابـــــداً فـــــي مُغـــــارَهْ

وَلاتَكِلنـــــي إلـــــى سِـــــواك فَأَخيـــــا رُ زمـــــــاني لايمنحـــــــونَ خِيـــــــارَهْ

إنّه يعلّق على ممدوحه، فيستغيث به ويستجير لكي يساعده في توفير مؤنة عياله، فيخفّف عنه ثقلهم، مؤكداً تمسّكه بأسرته، وحرصه على إعالتها ورعايتها ومشيرا إلى أنه يعتبر ذلك عبادة، لا بل فضّل إعالتهم على الإنقطاع في رباط، أو مغارة مع المتصوفة للعبادة. ثمّ يحثّه على عدم إحالته إلى غيره من خيار أهل الزمان فهم لايعطونه حتى الخيارة على قلّة قيمتها وعدم فائدتها لعياله الكثر. وفي قصيدة أخرى مدح بها الوزير بهاء الدين بن حنا، عرض حال أسرته وفقره وكثرة اولاده،و فصّل أحوالهم، ثمّ يبيّن أنّ عمله لا يكفيه لسدّ متطلبات أسرته،حتّى أنّ أبناءه سألوه إن كان يخدم الناس من دون أجرةٍ و قال: (المصدر نفسه، ١٦٦)

و أنـــــت فـــــى خدمـــــة قـــــومٍ فهـــــل تخـــــــدمهم يـــــــا أبتـــــــا ســـــــخره

بعد سؤل أولاده يفصّل ما فعلته به زوجته و يقول: (المصدر نفسه، ١٦٧)

و يـــــــوم زارت أمهـــــــم أختهـــــــا والأخـــــت فـــــى الغيـــــرة كالضّـــــرّه

قالـــــت لهـــــا كيـــــف تكـــــون النّســـــا كـــــذا مـــــع الأزواج يـــــا غـــــرّه

قـــــومى اطلبـــــى حقّـــــكِ منـــــه بـــــلا تخلّـــــــفٍ منـــــــكِ و لا فتـــــــره

و إن تـــــأبّى فخـــــذى ذقنـــــه ثـــــمّ انتفيهـــــا شَـــــعرهٔ شـــــعره

قالـــت لهـــا مـــا عـــادتى هكـــذا فـــإنّ زوجـــى عنـــده ضـــجرهٔ

٢. النّقد السّياسى:

إنّ فساد الحكّام و الولاة و القادة و الوزراء و حيلهم الواسعة ظلت لوقتٍ طويلٍ مورداً غزيراً لنقدهم عند الشّعراء فى هذا العصر، فإنتقادهم و هجاههم للملوك والأمراء والعمّال الفاسدين، هو ما جعل بشعرهم من مظاهر المقاومة الشعبية والتمرّد على الجور والمفاسد. الإجتماعية ومن هنا أتت أهمية شعرهم وتفردّه في الشعر العربي. (محمد، ١٩٩٣: ١٢٥)

أ- نقد الملوك:

ومن قبيل النقد السياسي نقد الملوك الصغار الذين يقلّدون الحكم وهم دون سن الرشد، فيتولّى عنهم السلطة رجالٌ آخرون، مما يؤدي إلى انتشار الفوضى والفساد (الأيوبي، ١٤١٥: ٢٥١) وقد أتى الجزار على ذلك بحديثه عن الملك الأشرف[١] الذي كان طفلاً صغيراً على الحكم فلم يستطع تدبير البلاد، يقول فيه: (ابن ظهيرة، ١٩٦٩: ٤٤)

وَالملـــــكُ الأشـــــرفُ كـــــانَ طفـــــلاً فَلَـــــم يُـــــدَبِّر عَقـــــدهَا والحـــــلا

وقد نظم ابن الوردي أبياتاً حين تسلطن الملك كجك[٢] وكان صغيراً حيث قال فيه: (ابن الوردى، ١٤٠٧: ٢٢٢)

ســـلطانُنا اليـــومَ طفـــلٌ والأكـــابِرُ فـــي خُلـــفٍ وبيـــنهم الشَّـــيطانُ قـــد نَزغـــا

فكيـــف يَطمَـــعُ مَـــن مَسَّـــتهُ مظلَمَـــةً أَن يَبلُـــغَ السُـــؤلَ وَالسُّـــلطانُ مـــا بَلَغـــا

السلطان طفل، وهناك من يتسابق على الحكم عوضاً عنه،و الشيطان نازغٌ بينهم، كل ذلك يؤدي إلى تدهور الأمور والبلاد و أين الشعب من كل ذلك؟ الشعب في حالة ضياع وظلم، فكيف يستطيع من مسّته مظلمةٌ من هذا الشعب أن يشكو أمره وأن يبلغ سؤله وسلطانه لم يبلغ بعدُ؟

ب- نقد صاحب الشرطة:

من المفترض أن يقوم صاحب الشرطة على توفير الأمن للمواطنين، وأملاكهم وأن يعمل على ملاحقة اللصوص، ومحاسبتهم وفق القانون ولكن الشعراء رأوا أوضاعاً غير ذلك في حياتهم وقاموا بنقدهم. قال البوصيري قصيدةً في مدح الصاحب شمس الدين عيسى بن برهان الدين السنجاري وكان نائباً في الوزارة، وفي أثناء مدحه عرض له شكوى صديق له، دهم اللصوص منزله، فسرقوا ثيابه، وسجنوه فى بيته. ولما رفع دعوى إلى صاحب الشرطة لم يأبه لشكواه، وكأنه يشكو له الفرنسيس حاكم الفرنجة لا بل كأنه قاضٍ يقول للشاكي:لافائدة من شكواه ولاجدوى؛ فخصمه مفلّس. ثم يأتي إليه أصحاب الأراضي يطلبون الريع، والمال الذي سرقوه فيجنّ. قال: (البوصيري، ٢٠٠٧: ١٧٢)

لـــي صـــاحبٌ سَـــرَقَ اللُّصـــوصُ ثيابَـــه لَـــيلاً فبـــاتَ بِبَيتِـــه مَحبُوســـا

وشـــكا لـــوالي الحـــربِ ســـارقَ بيتِـــه فَكأنَّمـــا يشـــكو لـــه افرَنسيســـا

[١]. هو الأشرف بن الناصر يوسف بن محمد، ولّى السلطة بعد شجرة الدر وخُلِعَ في نفس سنة توليه أي سنة ٦٤٨ هـ. (ابن ظهيرة، ١٩٦٩: ٤٤)

[٢]. هو الأشرف علاء الدين كحب بن الناصر بن محمد بن قلاوون، تسلطن الملك سنة ٧٤٢ هـ. ثم خلع من عامه وولى أخوه أحمد ولقب بالناصر. (ابن ظهيرة، ١٩٦٩: ٤٤)

وكأنّـــه قـــاضٍ يقـــولُ لخصـــمِه: هـــذا غَريمُـــك أَنْبَـــتَ التَّفليســـا

ويَحُجُّـــه أصـــحابُ ريـــعٍ عنـــده ويُقَـــدِّمُوهُ فيُظهِرُالتّعبيســـا

ولرُبّمـــا التمســـوه بالمـــالِ الـــذي ســـرقوا فأصـــبحَ لامســـاً ملموســـا

سمّى البوصيري صاحب الشرطة (والي الحرب).

ج- نقد الموظفين:

لما كان هناك من السلاطين والملوك في العصر المملوكي من هم فاسدون وظالمون، فمن الطبيعي أن يسري السوء إلى بقية موظفي الدولة، ينتشر بينهم، ويصبح وجودهم لايحقق غايته. كيف لا... والسلطان منصرف عن متابعة وتفتيشه ومراجعته، والقيم على أعماله هو المستخدم الذي أصبح بمثابة الرئيس الفعلي في تأدية أمور الحكم، والمتصرف الأول فيما يعرض عليه رئيسه، الأمر الذي أدى إلى الاضطراب والفساد. (سليم، ١٩٩٢: ٢٤٥/٧)

«وطبيعي إن يتفشّى هذا الشره، وتسرى عداوة من الكبير إلى الصغير، فيصبح كل من ولى أمرا من أمور الناس، وقد أعمل يده في السلب والنهب مستغلاً منصبه، محتمياً به، لايردعه خلق، ولاترفعه همة.» (أمين، ٢٠٠٣: ١٣٥)

بناءً على ما تقدّم، من المؤكّد أن القيم ستنهار، والأخلاق والدين سيختفيان ليحلَّ محلّها الاستبداد والظلم وأكل الأخ لحم أخيه بلارادع أو مانع. يقول ابن دقيق العيد في هؤلاء الناس: (الصفدي، ١٩٨٠: ٢٠٤/٤)

فَـــإن تخـــالط مـــنهمُ معشـــراً هويـــتَ فـــي الـــدين علـــى الـــرّاسِ

يأكـــلُ بعضُـــهم لحـــمَ بعـــضٍ ولا يحسَـــبُ فـــي الغيبـــةِ مـــن بـــاسِ

لاورعٌ فـــي الـــدين يحمـــيهمُ عنهـــا ولا حشـــمةُ جُـــلَّاسِ

لايعـــدمُ الآتـــي إلـــى بـــابِهم مـــن ذلَّـــةِ الكلـــبِ سِـــوَى الخَـــاسِ

صورظ قائمة مريرة لهؤلاء الناس، يخطّها ابن دقيق العيد ساخراً من قلة ورعهم وانعدام أخلاقهم مفضلاً البعد عنهم لأن من يخالط معشراً منهم يهوِ في دينه على الرأس. ولعل أكثر الشعراء انتقاداً لموظفي الدولة ومستخدميها هو البوصيري الذي نظم قصيدةً فضح فيها موظفى الدواوين وغيرهم. منها قوله: (البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٥٠)

أَمَولانـــا الـــوزيرُ غفلـــتَ عمّـــا يَهُـــمُّ مِـــنَ الكِـــلابِ الخائِنِينَـــا

يصيب البوصيري بسهم هجائه وسخريته أمرين: الأول غفلة الوزير عن موظفيه، والثاني لؤم الكاتبين وأفعالهم، فالشاعر هنا ينتقد سكوت الوزير عن هؤلاء اللئام الكاتبين، ويسخر من غفلته و عدم ضربه على أيديهم (سليم، ١٩٩٢: ٢٣٧/٧) ومن انتقاده لموظفي الدولة قوله: (البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٥٠)

ثَكِلـــتُ طوائـــفَ المُســـتخدمينا فلـــم أَرَ فـــيهم رَجُـــلاً أمينـــا

فَخُـــــذ أخبـــــارَهم مِنّـــــي شِـــــفاهاً وَأَنظِرنـــــــي لِأُخبِـــــــرَكَ اليَقينـــــا

فَقَـــــد عَاشَـــــرتُهُم وَلَبِثـــــتُ فِـــــيهم مَـــــعَ التَّجريـــــبِ مِـــــن عمـــــري سِـــــنينا

عملُ البوصيري في الدواوين، ومعاشرته للمستخدمين سنيناً طويلة، جعلته يحفظهم عن ظهر قلب، لذلك فهو خير من يتحدّث عنهم ويخبر أخبارهم، فيقول بلسان الواثق أن لا أمين فيهم على الإطلاق لذلك يرى ألّا يوثق بهم، ويواصل هجومه عليهم منقداً أفعالهم.

٣- النقد الديني:

أ- نقد القضاة والفقهاء المسلمين:

لعب القضاة والفقهاء المسلمين في العصر المملوكي دوراً مهماً في الحياة المجتمع الإسلامي و بخاصة أنّ السلطة كانت منقسمة إلى قسمين: قسم دنيوي يسيطر عليه السلاطين المماليك وقسم ديني يسيطر عليه علماء الدين الإسلامي من: قضاة وفقهاء،أئمة وغيرهم. (سلام، بلا تاريخ: ٦٥/١) وكانت مكانة قاضي القضاة تلي مكانة الخليفة العباسي وقد جعل الظاهر بيبرس القضاة أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربعة. ولكنه أبقى كبيرهم شافعياً كما تولى بعض القضاة إلى جانب وظيفة القضاء، مناسب إدارية مهمة كالوزارة والنظر في الدواوين. (ابن العماد الحنبلي، ١٣٩٩: ٣٢٠/٥)

وكان لعلماء الدين من فقهاء و أئمة مساجد، وخطباء، تقدير واحترام واضحان في المجتمع الإسلامي وقد خشيهم السلاطين المماليك. وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت من بعض علماء الدين الإسلامي ممارسات جعلتهم محطّ انتقاد الشعراء ففضحوا ممارستهم وحرّضوا السلاطين عليهم لتغييرهم، قال البوصيري في بعض القضاة والفقهاء: (البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٦٨)

تَحيّلَـــــتِ القضـــــاةُ فخـــــان كـــــلٌّ أمانتَـــــــه وســـــــمّوه الأَمينـــــا

وكـــــم جَعَـــــلَ الفقيـــــهُ العـــــدلَ ظُلمـــــاً وَصَـــــيَّرَ بـــــاطلاً حقـــــاً مُبِينـــــا

وَمـــــا أخشَـــــى علـــــى أحـــــوالِ مصـــــرٍ سِـــــوى مِـــــن معشـــــرٍ يَتَأَوَّلُونـــــا

يتهم البوصيري القضاة والفقهاء صراحةً؛ فالقضاة المفترض أنهم أمناء على الرعية، أصبحوا يخونونها، والفقهاء المفترض يحافظون على إقامة العدل وإشاعته بين الناس، أصبحوا مفسدين، ويحوّلون الحقَّ باطلاً فهم يؤدّون كلَّ شيء وفق أهوائهم ومصالحهم.

ب- نقد المتصوفة:

ازدهرت حركة التصوف في الدول المملوكية، والحقيقة أن المماليك قد روّجوا لهذا التيار واحتفوا به، فأسّسوا لهم المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف، ولكن لم يكن في زهادة منهم في شيء وإنما هو صرف للناس عن الدنيا ليستأثروا بها وحدهم. (أمين، ٢٠٠٣: ١٦٤)

ومن الشعراء من اتّهم المتصوفة بالكفر والزندقة ورماهم بالبطالة والفساد والكسل ومنهم من رماهم بسهامه فأوسعهم سبّا وسخرية. (المصدر نفسه، ١٥) ومنهم ابن المعمار الذي قد اشتدّ في مهاجمة المتصوفة الذين كان المفترض بهم استقبال المحتاجين في خانقاتهم ولكن بعضهم لن يفعل ذلك، فكانوا يأوون من يروق لهم (محمد، ١٩٩٣: ١٣٤)فيقول: (ابن المعمار، بلا تاريخ: ق١٠)

قـــــد صـــــار فـــــي الخانقـــــاه عُـــــرفٌ مـــــن فعلهـــــم وهـــــو شَـــــرُّ عـــــارَهْ

لا يـــــدفعون النّصـــــيب فيهـــــا إلّا لمـــــن تـــــرك الشّـــــهادة

وفي مثل هذا القول يصفهم البهاء الزهير بقوله: (البهاء، ١٩٧٧: ٢٣٨)

كَـــم أُنـــاسٍ أظهَـــروا الزُّهـــدَ لنـــا فتجـــافوا عـــن حـــلالٍ وحـــرامِ

قَلَّلُـــوا الأكـــلَ وأَبـــدوا ورعـــاً وَاجتِهـــاداً فـــي صـــيامٍ وقيـــامِ

ثُـــمَّ لَمّـــا أَمكَنَـــتهُم فُرصـــةٌ أكلـــوا أكـــلَ الحزانـــي فـــي الظَّـــلامِ

هنا يفضح البهاء زهير حقيقة هذه الفئة من الزهاد المتصوفة فيبيّن أن علينا أن لا نغترّ بظاهر أعمالهم من الاجتهاد في الصيام والقيام لأنهم ما أن يختفوا عن أنظار العامة فإنهم يأكلون أكلَ لحزاني في الظلام، أي يأكلون بشراهة.

ج- نقد أهل الذمّة:

ساد جوٌّ من توتر العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة طوال العصر المملوكي، ومن العوامل التي ساعدت على خلق هذا التوتر الحروب الصليبية وما ارتكبت من أهوال جعلت مشاعر المسلمين تفيض بالمرارة وبالتالي خلقت ردّ فعلٍ عنيفٍ تجاه أهل الذمة في بلادهم. من هنا جاء دور الشعراء الذين هبّوا بأشعارهم يهجون للأقباط هجاءً لاذعاً، وخير مثال على هؤلاء الشعراء البوصيري الذي كان شعره تعبيراً عن مشاعره ومشاعر المسلمين نحو أهل الذمة و حيث يقول في قصيدةٍ له: (البوصيري، ٢٠٠٧: ١٥٢)

إنّ النَّصـــــارى بالمَحَلَّـــــةِ وُدُّهُـــــم لـــــو كـــــان جامعُهـــــا يكـــــون كنيســـــا

أتُـــــرى النَّصـــــارى يحكمـــــونَ بأنَّـــــه مـــــن باشَـــــرَ الأحبـــــاسَ صـــــار حبيبـــــا

حيث يبين لولي الأمر وحاكم البلاد خبث النصارى ويعكس ماهية تفكيرهم ومدى كرههم للإسلام فهم يتمنّون أن تتحوّل المساجد في المحلّة (مدينة مشهورة بالديار المصرية) إلى كنائس.

و بعد هذا التوضيح يرجو الشاعر من ولى الأمر بصرفهم وعدم استخدامهم بقوله: (المصدر نفسه، ١٥٢)

صَـــرَفَ الإلـــهُ السُّـــوءَ عنـــك بِصَـــرفِه فَاصـــــرِفه عنّـــــا واصـــــفَعِ القسِّيســـــا

أَفـــــدِي بـــــه المُســـــتَخدَمينَ وَإِنَّمـــــا أَفـــــدِي بِتَـــــيسِ كـــــاليَهودِ تُيوســـــا

لَـــو كنـــتُ أَملِـــكُ أمـــرَهُم مِـــن غَيرَتِـــي لـــــم أَبـــــقِ لِلمُســـــتَخدَمينَ ضُرُوســـــا

لم يكن البوصيري الشاعر الوحيد الذي ضاق باستخدام أهل الذمة، فالعطار يهجو المستخدمين ويسخر من استخدمهم بقوله: (العصقلاني، ١٩٩٧: ١/٢٧٠)

قـــالوا نـــرى الأقبـــاطَ قـــد رُزِقُـــوا حَظّـــــاً وأضـــــعوا كالســـــلاطينِ

وَغَلَلُـــــوا الأمـــــوالَ قُلـــــتُ لَهُـــــم رزقُ الكـــــــلابِ علـــــــى المجـــــــانينِ

الخاتمة و النتائج:

١- تمكّن شعراء العصر المملوكي – إلى حد كبير– من نقل صورة واضحة لحياة المجتمع الإسلامي في هذا العصر و هذه الصورة ما كان يمكنهم رسمُها وتوضيحها لو لم يكونوا ملتزمين بقضايا المجتمع وجريئاً في تناولها. الأسباب التي دفعت الشعراء إلى شعر النقد الإجتماعي كثيرة ومنها ما هو الأهم وهو المدفوع من البيئة الإجتماعية والسياسية ومنها ما كان لأغراض دينية عقائدية. كان شعر النقد الإجتماعي سلاح كثير من الشعراء في مقاومة الظلم والجور ويُعدّ مظهراً من مظاهر المقاومة الشعبية. اتخذ الشعراء شعر النقد الإجتماعي وسيلةً من وسائل الشكاية حيث كانوا يصوّرون من خلاله فقرهم وضيق حالهم وجعلوا من خلالها يلفتون الأنظار إلى حالهم وأوضاعهم الإجتماعية والمادية.

٢- قد جاء شعر النقد الإجتماعي في العصر المملوكي موزعاً على هذه المظاهر: أ- النقد الذاتي: فقد نقد الشعراء أنفسهم، أسرتهم و أزواجهم. ب- النقد السياسي: إذ نقد الشعراء الملوك، وأصحاب الشرطة والموظفين. ج- النقد الديني: حيث نقد الشعراء بعض القضاة والفقهاء والمتصوفة وأهل الذمة. وهذه هي أهم الموضوعات التى تطرّق إليها الشعراء في النقد الإجتماعي في العصر المملوكي.

٣- قام عدد كثير من شعراء العصر المملوكي بمسؤلية تجاه قضايا المجتمع وشعر النقد الإجتماعي في هذا العصر ومن أهم هؤلاء الشعراء يمكن الإشارة إلى البوصيري، ابن الوردي، الجزار، ابن دقيق العيد، ابن المعمار، البهاء زهير والعطار. هذه هي أهم ما توصلنا إليه من شواهد الشعر الإجتماعي ولانشك في أن هناك آثارا شعريةً أخرى أقوى دلالة وأعمق تأثيراً لم نوفّق الى مطالعتها.

المصادر والمراجع:

١. ابن ظهيرة، **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، دارالكتب المصرية، (د.ط)، القاهرة، ١٩٦٩ م.

٢. ابن العماد الحنبلي، عبدالحي (ت ١٠٨٩/ ١٦٧٨)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ط ٢ منقحة، دارالميسرة، بيروت ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

٣. ابن الوردي، زين العابدين عمر بن مظفر، **ديوان ابن الوردي**، حقّقه وعلّق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، دارالقلم، الكويت، ١٤٧٠ هـ/ ١٩٨٧ م.

٤. أمين، بكري شيخ، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، ط ٢، دارالآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

٥. أمين، فوزي محمد، **أدب العصر المملوكي الأول ملامح المجتمع المصري**، دارالمعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية، ٢٠٠٣.

٦. الأيوبي، ياسين، **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**، ط١، جروس برس، طرابلس، ١٤١٥/١٩٩٥.

٧. بدوي، أحمد، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، ط ٢، دارنهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩.

٨. بهاء الدين، زهير(ت ٦٥٦هـ)، **الديوان**، تحقيق محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، دارالمعارف، مصر، ١٩٧٧.

٩. البوصيري، محمد بن سعيد (ت ٦٩٦/ ١٢٩٦)، **الديوان**، المقدمة، تحقيق سيد كيلاني، ط ٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩٣/ ١٩٨٧ م.

١٠. ــــــــــــ، ــ، تحقيق عبدالرحمن مصطاوي، دارالمعارف، بيروت، ٢٠٠٧ م.

١١. الحموي، ابن الحجة، تقي الدين أبوبكر علي (ت ٨٣٧ هـ)، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، مكتبة لبنان، (د.ط)، بيروت (د.ت).

١٢. سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر المملوكي، الشعر والشعراء**، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.

١٣.سليم، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، مكتبة الآداب، ط ٢، (د.م)، ١٩٩٢م.
١٤.الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق مجموعة دار فراتر بغسبادان، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت، ١٩٨٠.
١٥.ضيف، شوقي، **في النقد الأدبي**، ط ٢، دارالمعارف، مصر، دون تاريخ.
١٦.العسقلاني، ابن حجر أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، ضبط وتصحيح عبدالوارث محمد علي، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
١٧.الفقي، محمد كامل، **الأدب في العصر المملوكي**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.
١٨.محمد، محمود سالم، **أدب الصناع وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣.
١٩.المعمار، إبراهيم (٧٤٩ هـ)، **الديوان**، إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية، رقم 1118.
٢٠.الهيب، أحمد فوزي، **الحركة الشعريةزمن المماليك في حلب الشهباء**، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.
٢١.يوسف، خالد، **الشعر العربي أيام المماليك ومَن عاصرهم مِن ذوي السلطان**، ط ١، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٣.